خديجة أزلماض

المتاهة

رواية غموض ونفسية

«حين تطيل النظر في الهاوية، تشخص الهاوية بنظرها إليك.. وفجأة تكتشف أنك لم تكن تبحث عن الحقيقة، بل كنت تصنع متاهتك بنفسك.»

فريدريك نيتشه

الفصل الأول

كانت برلين في شتاء عام 1924 تشبه جثة هامدة تكسوها طبقة رقيقة من الثلج المتسخ.

وقفت كيرا في منتصف الزقاق المظلم، تزرّر معطفها الصوفي الثقيل بأصابع شبه متجمدة. كان الضباب يلتف حول مصابيح الغاز الباهتة بكثافة، مخفيًا أطراف الشارع في ظلام دامس، وكأن أنفاسًا خفية تتنفس في العتمة القريبة. كانت الثواني تمر ثقيلة، وصوت قطرات المطر المتساقطة من مزاريب البناية القديمة يرتطم بالحجر الأسود الرطب، محضرًا إيقاعًا منتظمًا يزيد من توتر الصمت.

رفعت رأسها ببطء نحو البناية ذات الواجهة الحجرية المتآكلة. النوافذ كلها كانت مظلمة، تتطلع إلى الشارع كعيون عمياء. أخرجت كيرا من جيبها الداخلي مفتاحًا نحاسيًا عتيقًا يلمع ببرود تحت الضوء الخافت. كان هذا المفتاح هو الشيء الأخير الذي وصلها من كاتيا داخل طرد كرتوني صغير قبل اختفائها الغامض بأسابيع.

تذكرت كيرا السطر الأخير المكتوب بخط يد كاتيا المرتعش في الرسالة الأخيرة. كتبت لها حذارِ أن تذهبي إلى الشرطة يا كيرا، الشرطة هنا لا تبحث عن المهاجرين الفقراء. إذا انقطع صوتي، خذي هذا المفتاح واسكني في شقتي، امشي في الشوارع التي مشيت فيها، واجلسي على المقاعد التي جلست عليها. هناك فقط ستفهمين سر هذا الحي وسر من يتتبع خطاي.

تقدمت كيرا نحو الباب الخشبي الضخم للبناية. كان المشهد أشبه بالدخول إلى فم كائن يبتلع الضوء. دفعت الباب الثقيل فأصدر أنينًا حادًا أحدث صدى في الممر السفلي المظلم. تنفست هواءً باردًا يحمل رائحة الغبار المكتوم والأخشاب التعفنة.

بدأت تصعد السلالم الخشبية الحلزونية ببطء، وتتعمد وضع قدمها بحذر على أطراف الدرجات. وعندما وصلت إلى الدرجة السابعة، ضغطت عليها بقدمها عمداً، فأصدرت الخشبة صريرًا حادًا ومألوفًا. ابتسمت كيرا ابتسامة باهتة وخالية من الفرح، فقد ذكرت لها كاتيا في إحدى رسائلها

التفصيلية أن الدرجة السابعة في هذه البناية هي جرس الإنذار الطبيعي الذي ينبه السكان لمجيء غريب.

واصلت الصعود حتى توقفت أمام الباب ذي الرقم أربعة ب.

وقفت لعدة ثوانٍ تستمع إلى الصمت المفروض خلف الباب. رفعت يدها النحيلة، وأدخلت المفتاح في القفل الخشبي. دار المفتاح بدورتين كاملتين بصوت تكّة ميكانيكية جافة. دفعت الباب ببطء شديد، لتتسلل زاوية من ضوء الشارع الخارجي إلى الداخل.

استقبلتها رائحة رطوبة جافة، ممتزجة برائحة أوراق الشاي اليابسة التي كانت كاتيا تحب غليها كل مساء. كانت الشقة صغيرة، أثاثها بسيط ومحدود يتكون من سرير معدني صغير مغطى ببطانية خضراء داكنة، وموقد حديدي بارد يقف في الزاوية كتمثال، ومكتب خشبي عتيق يواجه النافذة المطلة على الزقاق.

خطت كيرا خطوة واحدة إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفها بحذر دون أن تصدر صوتًا. كانت عيناها تطوفان على كل

زاوية، تطابقان الصور التي رسمتها كاتيا في آلاف السطور عبر الرسائل.

تحركت كيرا بخطوات هادئة نحو المكتب الخشبي. كانت تنوي البحث عن مفكرة كاتيا أو أي أثر جديد تركته خلفها، لكن قدميها تجمدتا في منتصف الغرفة فجأة.

سرت رعدة باردة في سائر جسدها، وشعرت بشعر عنقها يقف خوفًا.

في إحدى الرسائل المفصلة، كتبت كاتيا جملة غريبة تدل على هوسها بالترتيب. قالت لها أنا لا أضع كوب الشاي الخاص بي أبدًا على الجهة اليمنى من المكتب، فحركتي العصبية بيدي اليمنى تجعلني أخشى سكبه على الأوراق، لذا أضعه دائمًا على اليسار، إنها عادتي السريّة التي لا أتخلي عنها حتى لو كنت وحدي.

لكن، على السطح الخشبي المترب للمكتب، كان هناك كوب نحاسي صغير مستقر بثبات وموضوع بدقة على الجهة اليمنى.

اقتربت كيرا بخطوات بطيئة للغاية، وكان صوت خفقان قلبها يتردد في أذنيها. أخرجت يدها المرتجفة من معطفها، ووجّهت سبابتها نحو الجدار النحاسي للكوب.

لم يكن الكوب باردًا كما ينبغي لأثاث شقة مهجورة منذ أسبوعين.

كان جدار الكوب النحاسي يبعث دفئًا خفيفًا.

كان أحدهم يشرب منه... قبل دقائق معدودة من دخولها.

الفصل الثاني .

لم تنم كيرا طوال الليل. ظلت جالسة على طرف السرير المعدني، تحتاط لكل صوت ينبعث من خشب الأرضية، وتتأمل الكوب النحاسي على الجهة اليمنى من المكتب حتى بدأ ضوء الصباح الرمادي يتسلل بشحوب عبر زجاج النافذة.

مع حلول الساعة السادسة صباحاً، كانت برلين تستيقظ على برودة قاسية. ارتدت كيرا معطفها الصوفي وشالها، وقررت الخروج لتبدأ تتبع الروتين اليومي الذي رسمته كاتيا في رسائلها خطوة بخطوة.

فتحت باب الشقة بحذر. كان الممر العلوي مظلماً وساكناً، ورائحة الدخان والبارود الباهت تخيم على الأجواء. خطت خطواتها الأولى نحو السلالم، لكن صوت صرير خشبي مفاجئ جعلها تتجمد في مكانها.

لم يكن الصرير قادماً من السلالم، بل من الباب المقابل لشقتها تماماً؛ الشقة رقم A4.

انفتح الباب ببطء شديد، بفارق إنشات قليلة فقط، ليظهر من خلال الفجوة المظلمة وجه رجل في الخمسينيات من عمره. كان يرتدي قبعة داكنة مخفوضة الحواف، ووجنتاه غائرتان بعيون غائرة ذات لون رمادي حاد كأنها قطع من الزجاج المكسور. كان هذا هو كلاوس، الجار الغامض.

لم يتكلم الرجل. فقط ثبت نظرته الحادة على وجه كيرا، يتفحص ملامحها بنوع من الذهول الشديد المزجج بالريبة، وكأنه يرى شبحاً خرج للتو من الشقة المجاورة. كان تنفسه المسموع يخرج كبخار أبيض في هواء الممر البارد.

تذكرت كيرا على الفور ما كتبته كاتيا في إحدى رسائلها المؤرخة قبل شهر من اختفائها:

"يا كيرا، الجار في الشقة المقابلة لي واسمه كلاوس، رجل لا ينام أبداً على ما أعتقد. في كل مرة أفتح فيها بابي في السادسة صباحاً، أجد بابه ينفتح بنفس القدر الدقيق. ينظر إليّ بنظرة جافة لا ترمش، كأنه يحسب أنفاسي أو ينتظر مني خطأ ما. لا يكلم أحداً في البناية، لكنني أحياناً أسمع من خلف جداره أصوات نقر منتظم بالحديد في منتصف الليل، وكأنه يحفر شيئاً ما داخل الجدار الفاصل بيننا."

وقفت كيرا مواجهة لتلك النظرات الثقيلة لعدة ثوانٍ بدت كأنها دهور. رفعت رأسها بثبات زائف، وخطت نحو السلالم متظاهرة بعدم الاكتراث، لكنها كانت تشعر بتركيز عينيه على ظهرها، كأن سكيناً باردة توضع بين كتفيها.

نزلت السلالم، وعندما وصلت إلى الشارع، استقبلها الهواء الجليدي. كان الشارع يمتلئ ببطء بالعمال والمهاجرين المتجهين إلى المصانع وسط الضباب.

سارت كيرا بضع خطوات حتى وصلت إلى زاوية الشارع، حيث يقع دكان صغير ومظلم تعلوه لافتة خشبية متآكلة مكتوب عليها اسم "هانز". كان الدكان هو المورد الوحيد للمواد الغذائية في هذا الحي الفقير.

دفعت الباب الخفيف، فدوى صوت جرس نحاسي صغير معلق في الأعلى.

ورا الطاولة الخشبية الطويلة، كان يقف رجل مسن، ذو شارب أبيض كثيف ويدين ضخمتين ممتلئتين بالندوب. كان يمسك بسكين حاد يقطع به قطعة كبيرة من الشحم. رفَع رأسه نحو كيرا، وتوقفت يده عن الحركة فجأة.

ساد الصمت الدكان. كانت رائحة المخللات الحامضة والجبن القديم تملأ المكان.

تراجعت كيرا خطوة إلى الخلف من طريقة تحديقه فيها. كان هانز ينظر إليها بإندهاد مكتوم، طافت عيناه على معطفها ثم على وجهها، قبل أن يبتسم ابتسامة باهتة أظهرت أسنانه الصفراء، وقال بصوت خشن ومتهدج بلغة ألمانية ثقيلة:

— صباح الخير... لم أرَ أحداً يشتري الشاي الأسود الممتاز منذ أسبوعين. هل عدتِ؟

قبضت كيرا يدها داخل جيب معطفها حتى غرزت أظافرها في كفها. كان كلام هانز يثبت أنه يعتقد للوهلة الأولى أنها كاتيا، أو أنه يعرف تماماً العلاقة بينهما.

اقتربت من الطاولة بخطوات منتظمة، وقالت بصوت هادئ محاولة ضبط نبرتها:

— أريد علبة من الشاي الأسود... وبعض الخبز الجاف.

تأملها هانز لبرهة دون أن يتحرك، ثم انحنى ل يجلب الشاي من الرف السفلي. وفي تلك اللحظة، مرت في ذهن كيرا كلمات كاتيا الصريحة في رسالتها الأخيرة حول هذا الرجل:

"انتبهي يا كيرا إذا احتجتِ يوماً للدخول إلى دكان هانز. هذا الرجل ليس مجرد بقال عجوز، إنه يعلم كل صغيرة وكبيرة تدور في هذا الحي حكماً بأنه يراقب الشارع من نافذته طوال اليوم. لكنه يملك عادة مرعبة؛ فهو يحتفظ بدفتر كبير تحت الطاولة يسجل فيه ديون وأسماء كل السكان، لكنني رأيته يوماً يكتب بجانب اسمي تاريخاً محدداً بعلامة إكس حمراء كبيرة، وعندما سألته عنها ابتسم وقال إنها مجرد تاريخ انتهاء صلاحية البضاعة... لكن عينيه كانتا تقولان شيئاً آخر تماماً."

أعاد هانز علبة الشاي الخشبية ووضعها على الطاولة أمام كيرا. مسح يديه في مئزره الجلدي المتسخ، ثم اقترب بجسده قليلاً نحوها، ولحقت به رائحة التبغ الرخيص.

قال بصوت خفيض شبه همس:

— صديقتكِ كانت مدينة لي بثلاثة ماركات قبل أن تتوقف عن المجيء... هل ستدفعين دينها، أم أنكِ جئتِ لتأخذي مكانها في كل شيء؟ .

الفصل الثالث .

بقيت كيرا واقفة أمام طاولة هانز الخشبية الثقيلة، والمسافة بينهما لا تتعدى شبرين. كانت رائحة الشحم والتبغ تخرج من أنفاسه لتخنق الهواء البارد داخل الدكان الصغير.

تأملت العلبة الخشبية للشاي على الطاولة، ثم رفعت عينيها بثبات نحو عيني البقال العجوز. خفق قلبها بقوة، لكنها نجحت في إخفاء ارتجاف يدها داخل جيب معطفها.

ـــ كيف عرفت أنني صديقتها؟ كيف افترضت فور دخولي أنني أمتّ لكاتيا بصلة؟

ابتسم هانز ابتسامة بطيئة لم تصل إلى عينيه المظلمتين. وضع الساطور الحاد جانباً على لوح التقطيع الخشبي، ليحدث صوتاً جافاً أربك الصمت. ثم انحنى قليلاً إلى الأمام ومسح شاربه الأبيض الكثيف بطرف مئزره الجلدي.

ـــ يا فتاة، هذا الحي لا يزوره الغرباء هكذا فجأة. الروسيات هنا يملكون نفس الملامح الحادة، نفس العينين الزرقاوين الباردتين كزجاج مكسور، والنظرة ذاتها التي تحمل خوفاً دفيناً من الشرطة.

سكت لبرهة، محظقاً في شفتيها، ثم أضاف بنبرة ساخرة:

ـــ ناهيكِ عن الكلمتين اللتين نطقتِ بهما للتو... تلك اللكنة الركيكة للغاية، وصوت الأحرف التي تتكسر في حلقكِ تماماً كما كانت تتكسر لدى كاتيا. أنتم المهاجرون تظنون أنكم تندمجون فجأة، لكنكم في الحقيقة مكشوفون للجميع كمن يمشي عارياً في ضوء النهار.

صمتت كيرا. كانت كلماته كجلدات قاسية تتلقاها في العلن، لكنها أدركت صحة كلامه؛ هي وكاتيا تجمعهما ملامح الشرق الروسي واللسان الذي يتلعثم أمام الألمانية الصارمة.

أخرجت من جيبها ماركين فضيين ووضعتهما على الطاولة الخشبية بجانب علبة الشاي، وقالت متجاهلة تعليقه القاسي:

ـــ هذا ثمن الشاي... وثمن الدين الذي تحدثت عنه. لكنني أريد أن أعرف متى كانت آخر مرة رأيتها فيها؟

التقط هانز القطعتين الفضيتين بسرعة ورمى بهما في صندوق يدوي تحت الطاولة. طاف بنظره نحو نافذة الدكان المطلة على الشارع البارد، ثم عاد ليتطلع فيها بقسوة:

ـــ قبل أسبوعين تقريباً... كانت في طريقها إلى العمل ليلاً في مقهى السيد هيرمان. جاءت لتشتري بعض الخبز،

وكانت مرعوبة كعادتها، تتلفت حولها وكأن أحداً يتبعها في كل خطوة.

اقتربت أكثر من السور الخشبي، وهبط بصوته إلى مستوى الهمس:

ـــ إذا أردتِ نصيحتي يا فتاة، خذي شايَكِ وعودي من حيث جئتِ. المقهى في أسفل الشارع ليس مكاناً لفتاة شريفة، وهيرمان ليس رجلاً يرحب بالأسئلة... خاصة إذا كانت الأسئلة تتأخر أسبوعين كاملين عن موعدها.

في تلك اللحظة، رُسمت في ذهن كيرا فقرة كاملة من إحدى الرسائل الأخيرة التي بعثتها كاتيا قبل اختفائها، حيث كتبت بين مزدوجتين:

"يا كيرا، إذا اضطُرِرتِ يوماً للتحدث مع هانز، فلا تصدقي نصائحه أبداً. إنه يظهر لكِ في صورة العجوز الناصح الذي يخشى عليكِ من المخاطر، لكنني اكتشفتُ يوماً أنه يتقاضى عمولة سرية من هيرمان صاحب المقهى مقابل إبلاغه عن أي مهاجر جديد يصل إلى الحي... إنه العين التي ترى كل شيء، واللسان الذي يبيع الأخبار لمن يدفع أكثر."

سحبت كيرا علبة الشاي من الطاولة بثبات، واستدارت نحو الباب دون أن تنبس بكلمة أخرى.

رنّ الجرس النحاسي الحاد مجدداً وهي تدفع الباب الخشبي للخروج. استقبلها الهواء الجليدي لشارع برلين المظلم، لكنها هذه المرة لم تكن ترتجف من البرد فقط... بل من إحساس خانق بأن كل عين في هذا الحي تشاهدها، وتحسب خطواتها نحو المقهى القابع في نهاية الطريق.

الفصل الرابع .

كان المقهى يقع في نهاية الشارع، في قبو سفلي تنحدر إليه بسلالم حجرية زلقة. كانت اللافتة النحاسية المعلقة فوق الباب تتأرجح مع الريح، كُتب عليها بخط عريض متآكل: "مقهى الأوركيد".

دفعت كيرا الباب الخشبي الثقيل، فتصاعدت بوجهها موجة خانقة من الدفء المسموم؛ خليط رديء من دخان التبغ، ورائحة النبيذ الرخيص، وعرق الزبائن المتزاحمين في العتمة. كانت الإضاءة خافتة، تعتمد على مصابيح زيتية حمراء معلقة في السقف، تصنع ظلالاً طويلة ومتحركة على الجدران المغطاة بالخشب المحروق.

كان الزبائن معظمهم من العمال المنهكين والمقامرين، يتحدثون بأصوات خفيضة وهم يلقون بأوراق اللعب على الطاولات.

سارت كيرا بين الطاولات بخطوات محسوبة، تشعر بنظرات الفضول تلاحق معطفها الغريب وشعرها المكشوف. وما إن اقتربت من المنصة الخشبية الرئيسية،

حتى تقدم نحوها شاب في أواخر العشرينيات، يحمل صينية نحاسية وممسحة متسخة على كتفه.

كان الشاب وسيمًا بملامح دافئة، شعره أشقر مرتب، وعيناه خضراوان تنضحان بطيبة ودودة تبدو غريبة تمامًا عن قسوة هذا المكان. كان هذا هو لوكاس، النادل.

مسح لوكاس الطاولة القريبة منها بسرعة، وقال بصوت هادئ ونبرة لطيفة تعكس تعاطفاً مفاجئاً:

— مساء الخير يا آنسة... هل تبحثين عن طاولة هادئة؟ الجو هنا يزداد صخبًا بعد الساعة السابعة.

تأملت كيرا وجهه الصافي، وشهقت في سرها؛ كانت ملامحه المبتسمة تبعث على الارتياح والاطمئنان بسرعة مرعبة. لكنها تذكرت على الفور التحذير الغريب الذي كتبته كاتيا في رسالتها قبل الاختفاء بأيام:

"يا كيرا، إن خطر هذا المكان لا يكمن في قسوة الأعداء، بل في طيبة الأصدقاء الجدد. لوكاس، النادل الشاب، هو الشخص الوحيد الذي يبتسم في وجهي كل يوم ويقدم لي الشاي الدافئ دون أن أطلبه. يبدو كالملاك وسط هذا

الجحيم، لكنني لاحظت يوماً أنه يعرف مواعيد خروجي ودخولي بالدقيقة... انتبهي من تلك الابتسامة الدافئة، فالماء الراكد هو الذي يغرق السابحين."

نظرت كيرا في عينيه الخضراوين وقالت بصوت خافض يخفي اضطرابها، متظاهرة بأنها مجرد مهاجرة ضائعة:

— لا أبحث عن طاولة... لقد أخبرني البقال في أول الشارع أنكم قد تحتاجون إلى يد عاملة هنا، أنا مهاجرة جديدة ولا أملك عملاً ولا مأوى يميناً أو يساراً.

تلاشت الابتسامة البسيطة من وجه لوكاس لبرهة قصيرة جدًا، كأنما مرّت على عينيه ظلال خاطفة من الحذر، لكنه سرعان ما أشار بيده النحيلة نحو حجرة زجاجية في زاوية المقهى دون أن تنطق شفتاه بكلمة زائدة.

اتجهت كيرا مباشرة نحو الغرفة الزجاجية بخطوات ثابتة رغم رجفة قلبها.

خلف الطاولة المكتظة بالأوراق وزجاجات الكحول الفارغة، كان يجلس رجل ضخم الجثة، ذو شعر أبيض محلوق بدقة، ويرتدي بدلة داكنة رغم حرارة المكان. كانت

عيناه صغيرتين وكأنهما ثقبان في جدار خشبي، ويحمل في يده سيجاراً ينبعث منه دخان رمادي كثيف.

دفعت كيرا الباب دون أن تطرق.

رفع هيرمان رأسه ببطء شديد، ووضع السيجار بين شفتيه الجافتين. تفرس في ملامحها الحادة وعينيها الزرقاوين لبرهة ثقيلة، قبل أن ينفث دخان سيجاره بوجهها ويقول بصوت جهوري وعميق يشبه صرير البوابات الحديدية:

— هل تظنين أن مقهايَ فندق فاخر ليأتي إليّ الغرباء هكذا بلا موعد؟ اطلعي من حيث أتيتِ، فليس لدي وقت لأضيعه مع العالات.

— أنا لست عالة، وأستطيع القيام بأي عمل تعرضه، مهما كان شاقاً. أنا بحاجة إلى المال وإلى سقف يقيني برد برلين.

ضحك هيرمان ضحكة قصيرة خالية من أي مرح، وضرب بيده الضخمة على سطح الطاولة الخشبية، مردفاً بقسوة وازدراء:

— أنثُنّ الروسيات لا تَأتين إلا بالمشاكل ... جائت قبلكِ واحدة أخرى تتباكى وتطلب العمل، وانتهى بها المطاف بأن أصبحت عبئاً لا يُطاق قبل أن تختفي في ظروف غامضة! لسنا هنا ملجأ للمهاجرات ولا داراً للرعاية الاجتماعية. اخرجي من مكتبي فوراً قبل أن أُنادي الشرطة لتتولى أمر هجرتكِ غير القانونية.

لم تتحرك كيرا من مكانها قيد أنملة. ثبتت قدميها على الأرض، وواجهت نظراته الحادة بنظرة أبرد، وقالت بصوت ثابت وواثق:

— الشرطة لن تُفيدكَ بشيء، وأنت تعلم ذلك جيداً يا سيد هيرمان... وأعلم أيضاً أنك لست مستعداً لتفرط في عاملة تقبل بالعمل في هذه الظروف المظلمة ودون أجر مرتفع، خاصة إن كانت تملك القدرة على الصمت. لن أتحرك من هنا حتى تعطيني فرصة واحدة لإثبات جدارتي.

تأملها هيرمان بتمعن وحدّة، وعدل جلسته على الكرسي الجلدي، وكأن جرأتها المفاجئة أثارت فضولا خطيراً في نفسه، ليقول بصوت منخفض ومبهم:

— إذن أنتِ تظنين نفسكِ شجاعة بما يكفي لتحمل قسوة هذا المكان؟ سنرى... العمل هنا يبدأ في منتصف الليل و يمتد الى الليل كله، و أمر آخر الأسئلة ممنوعة منعاً باتاً.

الفصل الخامس .

سقط ليل برلين كستارة من حديد، محولاً الشوارع إلى أزقة معتمة لا يقطع سكونها سوى وقع خطوات الشاحنات العسكرية البعيدة.

كانت كيرا تقف خلف المنضدة الخشبية الطويلة في مقهى الأوركيد، ترتدي مئزراً رمادياً باهتاً، وتجفف كؤوس النبيذ الملطخة ببقع داكنة. كانت أصابعها تتحرك بآلية، بينما عيناها كانتا تمسحان ركن المقهى زاوية بزاوية، مترقبة لكل حركة وصوت.

اقترب منها لوكاس بخطوات هادئة، حاملاً صينية فارغة، وابتسامته الهادئة لا تفارق وجهه. وقف بجانبها، ووضع الصينية على الخشب بصوت خفيف، ثم قال بنبرة خفيضة ومريحة:

— لا تجهدي نفسك كثيراً في ليلتك الأولى يا كيرا. هيرمان ليس بالرجل الذي يُرضيه القليل، لكنكِ أثبتِ جلداً لم تكن الفتاة التي سبقتكِ تملكه.

تسمّرت كيرا في مكانها لسوانح معدودة، وشعرت ببرودة تسري في أطرافها لمجرد سماع عبارة "الفتاة التي سبقتكِ". التفتت نحوه ببطء، وابتسمت بتكلف خفيف لتخفي اضطرابها، وقالت بصوت هادئ:

— تقصد الفتاة التي كانت تعمل هنا قبلي؟ هيرمان ذكرها باقتضاب... هل كانت متعبة إلى هذا الحد؟

هزّ لوكاس كتفيه ببساطة، ومال بظهره نحو المنضدة، وخفض صوته أكثر كأنه يشاركها سراً محظوراً:

— لم تكن متعبة... بل كانت كثيرة الأسئلة. كانت تظن أن هذا المكان يخبئ أسراراً عظيمة، وتارة تسأل عن قنوات التهريب، وتارة عن شحنات المخدرات التي تمر عبر الميناء ليلاً. العزيمة وحدها لا تكفي للنجاة هنا، بل الغباء هو ما يقود صاحبه إلى نهايته.

استقرت كلماته في رأس كيرا كأنها طعنات خفية. تذكرت تحذير كاتيا المكتوب في رسائلها السابقة عن هذا الشاب تحديداً، وكيف تتخفى قسوته وراء تلك الابتسامة الرقيقة.

— وماذا حدث لها في النهاية؟ ألم يسأل عنها أحد؟

رمقها لوكاس بنظرة طويلة ونافذة، نظرة خلت تماماً من الود، وقال ببرود غريب:

— رحلت فجأة... تماماً كما يأتي الغرباء إلى هذا الحي، يرحلون دون وداع. إياكِ وأن تكرري أخطاءها يا كيرا، فالمقهى يبتلع من لا يحسن الصمت.

تركها لوكاس واقفة مكانها وعاد لخدمة الزبائن في زاوية المقهى المظلمة.

مع حلول منتصف الليل، فرغ المقهى تدريجياً من زبائنه المغامرين، وأغلق هيرمان باب حجرته الزجاجية بمفتاح حديدي ثقيل. بقي في القبو المظلم سوى كيرا ولوكاس الذي كان ينظف الطاولات الأخيرة.

تسللت كيرا بحذر نحو الممر الخلفي المؤدي إلى المستودع المظلم، حيث تحتفظ ببعض الأدوات. وبينما كانت تمر بمحاذاة الرفوف الخشبية المتهالكة، رطبت قدمها ورقة صغيرة يابسة متطايرة من صندوق قديم.

انحنت لترفعها، ولاحظت أن الصندوق لم يكن مغلقاً بإحكام. مدت أصابعها وفتحت الغطاء بحذر شديد، لتبرز من داخله

مجموعة من الأغراض المبعثرة؛ دفاتر حسابات قديمة، ومعطف شتوي قديم ممزق قليلاً عند الكم.

رفعت المعطف بيديها المرتجفتين، وتفحصت رقعة القماش بعيون ملؤها الرعب والصدمة؛ لقد كان المعطف نفسه الذي كانت ترتديه كاتيا ، وبجانبه سقط دفتر يوميات صغير غارق ببقع بنية داكنة.

فتحت الدفتر بسرعة فائقة على الصفحة الأخيرة المضيئة بضوء المصباح الباهت، لتصعقها جملة مكتوبة بخط يد كاتيا المرتعش، وكأنها كتبت في آخر لحظات حياتها:

"إذا قرأتِ هذه السطور يا كيرا، فاعلمي أنني لم أهرب بمحض إرادتي...."

أغلق الدفتر بصوت مكتوم، بينما تردد في أذنيها صدى صوت لوكاس وهو يقول قبل قليل: "الفتاة التي سبقتكِ...".

هل يعقل أن لـِ لوكاس يد في اختفاء كاتيا ؟

الفصل السادس

كان الصباح التالي يحمل برودة لا تطاق، ضباب أبيض كثيف يحاصر نوافذ البناية كأنما يعزلها عن بقية العالم.

بعد ليلة متعبة أمضتها كيرا وهي تقلب الأفكار في رأسها، قررت أن تشرع في تنظيف الشقة لتجعلها صالحة للعيش والتحمل. جمعت الأغطية البالية، وألقت بالأوراق القديمة المبعثرة، ثم رفعت دلو الماء الفاتر وقطعة القماش لتنظيف سطح المكتب الخشبي المترب.

بينما كانت تمسح الخشب ببطء، وتزيل غبار أسابيع طويلة، تعثرت قطعة قماشها بحافة درج صغير كان مغلقاً بإحكام. حاولت فتحه فلم يتحرك في البداية، ومع ضغطة خفيفة انزلق الدرج إلى الأمام ليصدر صريرًا حادًا.

في قاع الدرج المظلم، لم تجد أوراقاً كثيرة، بل وجدت قصاصة ورقية صفراء صغيرة، كُتب عليها بخط يد كاتيا المرتعش عبارة واحدة فقط:

"لقد خذلني من أمنته يوماً على فؤادي وأسراري."

وقفت كيرا متجمّدة في مكانها، وقطعة القماش معلقة بيديها، بينما كانت الكلمات تتكرر في عقلها كصدى مزعج.

لم تكن هذه العبارة تبرئة لأحد، بل كانت سمّاً ناقعاً يقطر في عروق الشك. فكلاوس، بحفره السري للجدار، يخفي سراً مرعباً لا علاقة له بالبراءة. وهانز، البقال الذي يبيع أخبار المهاجرين، يملك دوافع كافية للإيقاع بمن تكشف أسراره. ولوكاس، بابتسامته الدافئة التي تتربص بالمواعيد، ليس سوى ذئب يرتدي ثوب وديعة. الجميع متورط، والجميع يملك وجهاً ثانياً مظلماً.

وبينما كانت العبارة تغرقها في دوامة من الحيرة والتشويش، تساؤلت في سرها: من بين كل هؤلاء كان الأقرب لقلبها لكي يخونه بهذه القسوة؟

وقبل أن تستقر أفكارها، تردد فجأة في الممر الخارجي صوت خطوات ثقيلة وبطيئة تصعد السلالم الخشبية صعوداً نحو الطابق العلوي المهجور... الطابق الذي يُفترض أنه مغلق ولا يصعد إليه أحد منذ سنوات!

الفصل السابع .

كان ضباب برلين الرمادي يلف السطح الحجري للبناية ببرودة قارسة. وضعت كيرا صينية صغيرة تضم كوبين من القهوة الدافئة وقالب كيك صغير أعدته بعناية، ثم سارت بخطوات هادئة نحو ركن السطح حيث كان كلاوس يجلس وحيداً كعادته، يحدق في الأفق بملامح جامدة وعينين غائرتين.

اقتربت منه بابتسامة خفيفة ومصطنعة، وقالت بنبرة أجنبية تحمل لكنة رقيقة:

— مساء الخير يا سيد كلاوس... أنا جارتكم الجديدة في الشقة رقم أربعة ب. شعرت بالوحدة في هذا المكان البارد، فقلت لمَ لا أشارككم قطعتين من الكيك وكأس قهوة ندفئ بهما سكون هذا المساء؟

تأملها كلاوس لبرهة طويلة، وعيناه الزجاجيتان تمسحان ملامحها بنظرة فاحصة وشكوك قديمة، قبل أن تسترخي عضلات وجهه قليلاً، ويتحرك ليخلي لها مساحة على المقعد الخشبي المتهالك.

— أهلاً بكِ يا فتاة... الغرباء نادراً ما يفكرون في مشاركة طعامهم مع عجوز مثلي في هذا الحي المنعزل. اجلسي، الهواء هنا لا يرحم.

جلست كيرا بجانبه، وأعطته الكوب الدافئ، ثم بدأت تظهر فضولاً طبيعياً ومدروساً كجارة جديدة ترغب في معرفة تاريخ البناية ومن سكن شقتها من قبلها. تنفست بخفة وقالت:

— الشقة التي أقيم فيها بدت لي غريبة بعض الشيء وكأن أحداً غادرها على عجل... هل تعرف من كان يسكنها قبلي يا سيد كلاوس؟

أخذ كلاوس رشفة بطيئة من قهوته، وابتسم ابتسامة باهتة ومقلقة، قبل أن ينظر إلى الأفق البعيد ويقول بنبرة هامسة:

— تقصدين تلك الفتاة الجميلة التي كانت تسمى كاتيا؟ آه... من يمكنه أن ينسى كاتيا. سكنت هناك لأشهر طويلة. كانت تبدو في الظاهر رقيقة، أنيقة، وحنونة إلى أبعد الحدود، تبتسم للجميع وتلقي التحية بصوت عذب. لكنها في الحقيقة كانت شخصية غامضة ومريبة لأبعد درجة.

شدت كيرا على كوب القهوة بقوة، وحافظت على هدوء أعصابها بينما كانت تتابع كلامه باهتمام بالغ:

— غامضة؟ كيف ذلك؟ هل كانت تخفي شيئاً؟

تابع كلاوس وحديثه يأخذ طابعاً مظلماً:

— تماماً... وكأنها كانت تهرب من أسرار مظلمة ستفترسها في أي لحظة. كانت تتلفت خلفها دائماً، وتغلق بابها بمزلاج إضافي، وأحياناً أسمع أصوات حفر وكتابة محمومة طوال الليل. أنا بطبيعتي رجل فضولي، أحب أن أعرف كل ما يدور حولي، فتقربت منها بحذر شديد لأكتشف ما تخفيه... وفجأة، في ليلة ذات ريح عاصفة، اختفت تماماً دون أن تترك خلفها أثراً واحداً! الشرطة حضرت وسألت، لكن لا أحد وجد لها ركيزة.

شعرت كيرا ببرودة تسري في ظهرها؛ كلاوس يعترف علانية بأنه كان يراقبها ويتقرب منها بفضول مرعب حتى لحظة اختفائها، وهو ما يمنحه دافعاً قوياً ليكون المشتبه به الأول في هذه اللحظة.

ابتسمت كيرا بتكلف وأنهت قهوتها بسرعة، وودعته بخطوات سريعة وهي تقرر في نفسها شيئاً حاسماً:

— شكراً على القهوة يا سيد كلاوس... تصبح على خير.

نزلت إلى شقتها، وأغقت الباب بإحكام، وبدأت رحلة بحثها الخاصة في خلفية هذا الجار الغامض، متساءلة عما إذا كان فضوله قد تحول إلى جريمة كاملة.

الفصل الثامن .

في الصباح الموالي، وتحت ضباب برلين الخانق، قررت كيرا أن تتخلص من ثقل الأسئلة التي تركها كلاوس في رأسها، لتتوجه خطواتها نحو دكان البقالة القديم برائحة الشحم والتبغ الرخيص. دفعت الباب الخشبي فرنّ الجرس النحاسي الحاد معلناً وصولها.

كان هانز يقف كعادتها خلف طاولته الخشبية الثقيلة، يمسح ساطوره بقطعة قماش مهترئة. رفعت كيرا يديها لترتب ياقة معطفها، واقتربت منه بابتسامة خفيفة ومصطنعة، متظاهرة بالبراءة وكأنها مجرد زبونة جديدة تريد التودد إلى صاحب الدكان:

— صباح الخير يا سيد هانز... جئت لأشتري علبة شاي أخرى، وأيضاً لأستمتع بحديث قصير معك، فالجو هنا بارد ووحيد بالنسبة لمهاجرة مثلي.

توقف هانز عن مسح ساطوره، وحدّق فيها بعينيه المظلمتين لبرهة ثقيلة، قبل أن تظهر على شفتيه ابتسامة صفراء وجافة. أشار بيده الخشنة نحو الرفوف وقال بصوته الأجش:

— أهلاً بالوجه الجديد... الغرباء هنا نادراً ما يهتمون بمجالسة العجائز، لكن لا بأس بالدفء وسط هذا الجليد.

أخذت كيرا علبة الشاي ببطء، ووضعت القطعتين الفضيتين على الطاولة، ثم سألت بنبرة فضولية ومدروسة كمن تبحث عن نصيحة جارة أكبر:

— كنت أتأمل هذه الشقة التي أعيش فيها الآن... سمعت أن فتاة روسية كانت تسكنها قبلي وتسمى كاتيا. هل كنت تعرفها جيداً يا سيد هانز؟

تغيرت ملامح هانز قليلاً، ووضع الساطور جانباً ببطء، ليومئ برأسه ناظراً إلى الشارع عبر نافذة الدكان المتسخة:

— كاتيا؟ آه... كيف لا أذكرها. كانت تتردد على دكاني كل يوم تقريباً لشراء الخبز والشاي. في البداية كانت تبدو فتاة هادئة، مسالمة، وتملك ذلك الوجه البريء الذي يبعث على الشفقة. لكنني بحكم عملي

ومعرفتي الجيدة بالبشر، أستطيع أن أرى ما تخفيه الوجوه خلف ابتساماتها.

التفتت إليه كيرا باهتمام بالغ، وحافظت على هدوء أعصابها لتشجيعه على الكلام:

— وماذا كانت تخفي خلف ذلك الوجه البريء؟

ضحك هانز ضحكة قصيرة وخشنة، ثم انحنى للأمام ليهبط بصوته إلى مستوى الهمس المظلم:

— الطمع يا فتاة! كاتيا لم تكن مجرد مهاجرة فقيرة تبحث عن لقمة عيش؛ لقد كانت تظن نفسها أذكى من الجميع. بدأت تتردد على أماكن مشبوهة ليلاً، وتتاجر بأشياء سرية في السوق السوداء وراء ظهر الجميع، وتجمع أموالاً طائلة بطرق ملتوية. أنا بطبيعتي أحب مراقبة زبائني وحمايتهم، فحاولت نصيحتها مراراً وتكراراً بأن تتوقف عن تلك الأعمال قبل أن توقع نفسها في مهلكة حقيقية.

أخذ هانز نفساً عميقاً، وأضاف بنبرة قاسية:

— لكنها تمادت كثيراً، ورفضت كل نصائحي متكبّرة ومغرورة، وفي ليلة سوداء، توقفت عن المجيء كلياً واختفت من الحي بأسره... يقال إن أصدقاءها الجدد في السوق السوداء تخلصوا منها عندما استولت على نصيبهم من المال! الطمع هو ما قتلها يا ابنتي، تماماً كما سيقتل كل من يسلك طريقها.

شعرت كيرا برجفة خفيفة تسري في أطرافها؛ هانز يوجه أصابع الاتهام نحو كاتيا نفسها ويبرر اختفاءها بطمعها في السوق السوداء، لكنه في نفس الوقت يعترف بمراقبته الدقيقة لها وتتبع خطواتها حتى ليلة اختفائها، مما يجعله مشتبهاً رئيسياً جديداً في هذه السلسلة المظلمة.

أخذت كيرا علبة الشاي بخطوات متماسكة، وودعته بجفاف، لتخرج إلى الشارع البارد وهي تدرك أن حلقة الشك تتسع، وأن كل شخص تلتقيه يملك رواية مرعبة ودليلاً جديداً يورطه في الجريمة.

الفصل التاسع .

تحت الأضواء الحمراء الباهتة لمقهى الأوركيد، كانت رائحة التبغ المذيب والنبيذ الرخيص تملأ المكان كالعادة. بعد منتصف الليل، وعندما خفّ صخب الزبائن وبدأت الطاولات تفرغ تدريجياً، قررت كيرا أن تخطو خطوتها التالية في سلسلة بحثها.

خلعت مئزرها الرمادي مؤقتاً، وتوجهت بخطوات هادئة نحو المنضدة الخشبية حيث كان لوكاس، النادل الشاب، يمسح بقطعة قماش كؤوس الزجاج بعناية فائقة. كانت ابتسامته الهادئة والدافئة لا تفارق وجهه، تلك الابتسامة التي تبدو غريبة تماماً عن قسوة هذا القبو المظلم.

وقفت أمامه، واستندت بيديها على الخشب المصرور، وقالت بنبرة ناعمة وفضولية تليق بمهاجرة جديدة تحاول استكشاف محيطها:

— مساء الخير يا لوكاس... أرى أنك تقضي جل ليلك هنا في خدمة هذا المكان المظلم. لا بد أنك تعرف كل خبايا هذا المقهى ومن يتردد عليه، أليس كذلك؟

توقف لوكاس عن مسح الكأس، ورفع عينيه الخضراوين نحوها ببطء. اتسعت ابتسامته قليلاً لتمنح وجهه طابعاً ودوداً، وأجاب بصوته الهادئ والمريح:

— مساء النور يا كيرا... العمل هنا يتطلب صبراً كبيراً وعينين لا تنامان. أما عن الخبايا، فهذا المكان لا يمنح أسراره بسهولة لأحد، لكنني أعتاد على مراقبة التفاصيل الصغيرة.

أظهرت كيرا اهتماماً مصطنعاً، وأشارت برأسها نحو الزاوية البعيدة من المقهى حيث كانت تجلس الفتيات عادة، وقالت بفضول مدروس:

— سمعت من بعض الجيران في الحي أن فتاة تدعى كاتيا كانت تعمل هنا قبلي... كانت تسكن في نفس شقتي تماماً. هل كنت تعرفها يا لوكاس؟ بدا لي أنها فتاة لطيفة وظريفة، فلماذا اختفت هكذا فجأة ودون سابق إنذار؟

تلاشت تلك اللمعة الودودة من عيني لوكاس لبرهة قصيرة جداً، كأنما مرّ ظل عابر خلف زجاج نافذة مظلمة، لكنه

سرعان ما استعاد هدوءه وابتسامته المعتادة، وأخذ يقلب الكأس بين أصيعه ببطء:

— آه... كاتيا. نعم، كيف لي ألا أتذكرها؟ كانت تتردد على المقهى كل ليلة. في البداية كانت تبدو وكأنها ملاك بريء ضلّ طريقه إلى هذا الجحيم؛ رقيقة، طيبة، وتقدم للجميع ابتسامات حنونة لا تنقطع، وكنت أقدم لها الشاي الدافئ كلما ركضت هاربة من برد الشارع.

أصاخت كيرا السمع بكل حواسها، وحافظت على هدوء ملامحها لتشجيعه على مواصلة الحديث:

— وماذا حدث لها إذن؟ لماذا انتهى بها الأمر إلى الاختفاء؟

مال لوكاس بكتفيه قليلاً نحو الأمام، وخفض صوته ليوحي وكأنه يشاركها سرا عميقا:

— الطيبة المفرطة في مثل هذا المكان يا كيرا هي قناع مخادع. كاتيا لم تكن بالبراءة التي تظنينها؛ لقد كانت تملك وجهاً ثانياً غامضاً للغاية. كانت تحصي مواعيد خروج الموظفين، وتراقب حركات هيرمان

بدقة، وتدون أسرار الزبائن في دفاتر خفية. كنت أقدم لها الشاي بدافع الشفقة، لكنني اكتشفت لاحقاً أنها كانت تستغل طيبتي لتجمع معلومات خطيرة وتبيعها لمن يدفع أكثر!

أخذ لوكاس نفساً عميقاً، وأضاف بنبرة حادة خلت من أي دفء:

— عندما واجهتها بحقيقة ألاعيبها، أنكرت ذلك بوجه متبلد، وفي تلك ليلة عاصفة، رحلت فجأة وبشكل نهائي. المقهى يبتلع كل من يحاول اللعب بالنار يا كيرا، وطيبة كاتيا المزيفة هي التي قادتها إلى نهايتها المحتومة. إياكِ أن تخدعك المظاهر هنا، فالابتسامات غالباً ما تخفي خلفها شفرات حادة.

شعرت كيرا ببرودة جليدية تسري في عروقها؛ لوكاس، بابتسامته الساحرة ونبرته الهادئة، يوجه الاتهام لكاتيا بأنها كانت مخادعة ومراقِبة، لكنه في نفس الوقت اعترف بأنه كان يراقبتها عن قرب ويعرف كل تفاصيل حركاتها ومواعيدها حتى ليلة اختفائها.

ابتسمت كيرا بتكلف وأنهت الحديث برهة، وعادت لعملها وهي تدرك أن دائرة الشك تكبر وتضيق في نفس الوقت؛ فكل شخص التقت به (كلاوس، هانز، والآن لوكاس) يقدم رواية مختلفة، وكل واحد منهم يمتلك دافعاً وأدلة غير مباشرة تجعله يبدو وكأنه المتربص في الظل.

الفصل العاشر .

كانت برودة منتصف الليل تخترق جدران مقهى الأوركيد الأسمنتينية. كانت كيرا تحني ركبتيها في زاوية القبو السفلي، حيث تتراكم صناديق الخشب القديمة وزجاجات النبيذ الفارغة، تنظف الأرضيات الخشنة بقطعة قماش مبللة لإبعاد الغبار المتراكم منذ سنوات.

وبينما كانت تزيح صندوقاً خشبياً ضخماً برزت من تحته فجأة قطعة معدنية غامضة مغطاة بطبقة سميكة من الصدأ والتراب، لمعت ببريق خفي في العتمة.

في تلك اللحظة بالضبط، فتح باب القبو الخشبي بحدة، وانبعث ضوء أصفر باهت من السلالم. ظهرت جثة هيرمان الضخمة تقطع النور، وبيده سيجاره المعتاد الذي ينفث دخاناً كثيفاً. وقف فوق رأسها، وتأمل بملامح وجهه الصارمة والعبوسة ما كانت تفعله، ثم ضرب بعصاه الخشبية على الأرض بقسوة وقال بصوته الجهوري والأجش:

— ما الذي تفعلينه في زوايا القبو المظلمة يا فتاة؟ هل تظنين نفسكِ في متحف لتنظفي الغبار المنسي؟

رفعت كيرا رأسها بسرعة، وخبأت القطعة المعدنية تحت قماشها، لترد بصوت مرتجف قليلاً:

— أنا... أنا أزيل الأوساخ فقط، أريد أن يكون المكان نظيفاً كما طلبتم.

سخر هيرمان ضحكة قاسية ومتهكمة، وانحنى قليلاً ليمسك سيجاره بين أصابعه الغليظة، مردفاً بنبرة ازدراء لا توصف:

— تماماً... تماماً مثل تلك الروسية الغبية كاتيا! كانت تفعل نفس الشيء تماماً؛ تفتش في الزوايا، وتنظف ما لا ينبغي تنظيفه، وتتطفل على أسرار هذا المكان وكأنها مالكته. أتعلمين؟ أنتم الروسيات تتشابهن جميعاً؛ تطأوِن أرضنا بلكناتكم الغريبة، وتظهرن بمظهر المسكنة والبراءة، لكن في قلوبكن طمع أعمى ورغبة مريحة في النبش فيما لا يخصكن!

شعرت كيرا بغضب مكتوم يشتعل في صدرها، وأدركت أن عليها أن تلعب دور المهاجرة المظلومة التي تكره تلك المقارنة لتجرّه إلى الكلام، فوقفت على رجليها بحزم مصطنع وقالت بلهجة مدافعة:

— أنا لست مثل كاتيا! لقد تسببت تلك الفتاة في تشويه سمعتنا جميعاً وجعلتكم تنظرون إلى أي مهاجرة نظرة ريبة واحتقار! ليتني لم أسمع بها أصلاً، لقد جلبت لنا المتاعب حتى بعد اختفائها.

تأملها هيرمان بملامح جامدة وثقيلة، وتغيرت نبرة صوته الحادة إلى همس خشن وثقيل وهو يتكئ على الحائط:

— أتريدين معرفة الحقيقة بشأنها؟ كاتيا لم تكن بريئة كما تتصورين، ولا مظلومة كما تتباكى. لقد جاءت إلى هنا تبحث عن عمل مثلك تماماً، وقبلت بكل الشروط، لكنها بدأت في ليلة سوداء تسرق مستندات العمل الخاصة بي وتساومني عليها مقابل المال! وحين واجهتها في هذا القبو بالذات، أنكرت بوقاحة وهددتني بإبلاغ الشرطة عن تجارتي... وفي الليلة التالية لتلك

المشاجرة، اختفت تماماً دون أن تترك خلفها سوى الخراب والأسئلة!

حدقت كيرا في عينيه الصغيرتين والثاقبتين بذهول؛ هانز يعترف بأنه واجه كاتيا في هذا القبو بالذات عشية اختفائها، وبأن بينهما صراعاً مباشراً على المستندات، مما يجعله يدخل بعنف وسط دائرة المتهمين بالوقوف خلف لغز غيابها.

نفث هيرمان آخر دخان سيجاره بوجهها، واستدار ليصعد السلالم ببطء وهو يقول بتهديد مبطن:

— انهي عملكِ هنا بسرعة، وإياكِ أن تكرري حماقات كاتيا، وإلا سيكون مصيركِ مطابقاً تماماً لنهايتها!

الفصل الحادي عشر .

جلست كيرا على حافة السرير الحديدي البارد في غرفتها الصغيرة رقم أربعة ب، وأمامها على الطاولة الخشبية المتهالكة دفتر صغير مزقته من أوراق مبعثرة، وقد خطت في أعلاه عنواناً بخط بارز: مصفوفة الاتهام.

عشرة فصول مضت، وعشرة أدلة متضاربة دارت بها في حلقة مفرغة محكمة الصنع. كل شخصية التقتها كانت تبدو بريئة في ظاهرها، ومذنبة في تفاصيلها، وكل واحد منهم قدم رواية مختلفة تفسر اختفاء كاتيا، لتصبح دائرة الشك أشبه بشبكة عنكبوتية لا متناهية:

كلاوس (الجار الغامض): الدليل المادي يتمثل في حفره السري للجدار وامتلاكه لوثائق تخص كاتيا، مع دافع قوي يتمثل في الابتزاز المتبادل والصراع على المستندات المسروقة.

هانز (البقال العجوز): الدليل المادي يتمثل في الساطور ودفتر الحسابات المشبوهة في السوق السوداء، مع دافع يتمثل في حماية تجارته السرية وتهديده المباشر لكاتيا ليلة اختفائها.

لوكاس (النادل الشاب): الدليل المادي يتمثل في مذكرة المواعيد الدقيقة التي كان يسجل فيها دخول وخروج كاتيا بدقة مرعبة، مع دافع يتمثل في استغلال طيبته المزيفة لجمع المعلومات وبيعها لمن يدفع أكثر.

هيرمان (صاحب المقهى): الدليل المادي يتمثل في المستندات المسروقة والمشاجرة العنيفة التي دارت بينه وبين كاتيا في القبو السفلي عشية اختفائها، مع دافع الانتقام وحماية مصالحه من الفضيحة.

تأملت كيرا تلك الأسماء المكتوبة بخط يدها، وشعرت برأسها يكاد ينفجر من شدة التفكير. للوهلة الأولى، بدا كل فرد منهم وكأنه القاتل الوحيد المسؤول عن اختفاء صديقتها. لكن بينما كانت تربط الخيوط ببعضها وتطابق توقيتات الحوادث، لمعت في عقلها فكرة مرعبة ومفاجئة جعلت الدماء تبطئ في عروقها:

ماذا لو لم يكن هناك قاتل واحد منفرد؟ ماذا لو لم تكن الجريمة عملاً فردياً يعبر عن غضب شخص واحد؟

تدل المعطيات المتقاطعة على أن كلاوس كان يعلم بأمر حفر الجدار، وهانز كان يزود الأطراف بمعلومات السوق السوداء، ولوكاس كان يراقب المواعيد ويقدم الشاي المسموم، بينما هيرمان كان يواجهها في القبو بالمستندات! كيف يمكن لأربعة أشخاص أن تتقاطع أدلتهم وتتطابق اعترافاتهم بهذا التناغم الغريب دون أن يكونوا على علم

ببعضهم البعض؟ أو ربما... كانوا جميعاً متواطئين في نفس البركة الآسنة، يغطون على جريمة جماعية تشابكت فيها مصالحهم الخفية!

أغقلت كيرا الدفتر بقوة، وتصاعدت في صدرها موجة من الحذر الشديد؛ لم يعد الأمر مجرد البحث عن شخص واحد مشتبه فيه، بل صار لزاماً عليها أن تواجه شبكة متكاملة من المتواطئين الذين يحيوّن في ظلال هذا الحي المظلم.

وقبل أن تستطرد في تحليلها، سمعت طرقة خفيفة ومفاجئة على باب غرفتها، تلتها نبرة صوت مألوفة وباردة تنادي من خلف الخشب:

— كيرا... هل أنتِ مستيقظة؟ لدينا أمر هام يجب أن نتحدث فيه معاً.

الفصل الثاني عشر .

وقفت كيرا مكانها لثوانٍ معدودة، وأصابعها مشدودة بقوة على غلاف دفتر "مصفوفة الاتهام" الموضوع على الطاولة. الطرقة على الباب لم تكن لعينة خشنة أو ثقيلة تشبه طرقة هيرمان أو كلاوس، بل كانت خفيفة، مترددة، وكأن صاحبتها تخشى أن توقظ جدران الممر المظلم.

خطت بخطوات بطيئة وحذرة نحو الباب، ثم أدارت المفتاح ببطء وفتحته إنشاً واحداً.

في عتمة الممر البارد، ظهرت فتاة في أوائل العشرينيات من عمرها، شعرها المنسدل يكسوه الغبار الخفيف، وعيناها الواسعتان ترتجفان بخوف واضح ومدروس. كانت ترتدي معطفاً رقيقاً لا يكفي لمواجهة برد برلين القارس، وتبدو وكأنها هربت للتو من كابوس مرعب.

قالت الفتاة بصوت همس خفيض ومتردد، وهي تحيط ذراعيها ببعضهما لتدفئة جسدها:

— أرجوكِ... هل لي أن أستريح لدقائق فقط؟ أنا جارتكِ الجديدة في الطابق السفلي... اسمي غريتا.

تفرست كيرا في ملامحها الشابة التي تقارب سنها، وشعرت ببعض الريبة، لكنها فتحت الباب على مصراعيه بحذر وقالت بصوت جاف:

— الطابق السفلي؟ لم ßألاحظ وجود أحد هناك قبلك... ادخلي بسرعة قبل أن يراكِ أحد.

دخلت غريتا بخطوات سريعة ومرتعشة، وأغلقت الباب خلفها بحرص شديد، ثم سارت نحو الموقد البارد وجلست على طرف الحافة الخشبية. تنفست بعمق لتستعيد صياغة أنفاسها، ثم رفعت عينيها نحو كيرا وقالت بنبرة ملؤها التوسل والنصح الخالص:

— جئت إليكِ في منتصف الليل لأنني لم أستطع النوم... راقبت حركاتكِ منذ أن قدمتِ إلى هذه البناية، ورأيت كيف تتعاملين مع هيرمان ولوكاس وكلاوس، فخفت عليكِ كثيراً. أقسم لكِ أنني لا أملك سوى النية الطيبة، جئت لأرشدك وأقدم لك النصيحة الخالصة: إياكِ وأن تفعلي ما فعلته الفتاة التي كانت تسكن هنا قبلكِ... إياكِ وأن تصبحي مثل كاتيا!

تسمّرت كيرا في مكانها، وانقبض قلبها بعنف حين تردد اسم كاتيا على لسان فتاة تقول إنها تسكن في الطابق السفلي ولا تعرف عنها شيئاً في العلن. ضيقت كيرا عينيها وواجهتها بنبرة حادة وصارمة:

— كاتيا؟ ما علاقتكِ أنتِ بكاتيا؟ ولماذا تأتين لي ليلاً لتخبريني بهذا الكلام؟

أبدت غريتا ارتباكاً شديداً، وأخذت تفرك كفيها ببعضهما بتوتر واضح، قبل أن تبتلع ريقها وتهمس بصوت مرتجف يقطر بالأسرار:

— كنت... كنت أراقبها من بعيد تماماً كما أراقبكِ الآن. كاتيا لم تكن مجرد جارة عادية تمضي في حال سبيلها؛ لقد كانت مثلك تماماً، شابة غريبة تبحث عن بداية جديدة، لكنها وثقت بالخطأ، وظنت أن بإمكانها مواجهة الجميع. كنت أسمعها تبكي في ليالي الشتاء، وكنت أراها تلتقي بشخص خفي في زاوية المقهى المظلمة تسلمه وثائق سرية كل أسبوع!

التصقت أنفاس كيرا بصدرها، وأدركت فوراً أن غريتا، بظهورها البريء ونصحها المزيف، ليست سوى حلقة جديدة في سلسلة التواطؤ المخيفة؛ إنها تحمل في جعبتها أسراراً دقيقة عن كاتيا، وتراقب التفاصيل بدقة لا تملكها سوى عين خبيرة أو شريكة في الجريمة.

تقدمت كيرا خطوة نحوها، وعيناها تحدقان فيها بثبات:

— تسلم وثائق سرية لمن؟ مع من كانت تلتقي يا غريتا؟ تكلمي ولا تقطعي كلامكِ!

الفصل الثالث عشر .

تراجعت غريتا خطوة للوراء، واصطدم ظهرها بالجدار البارد، وبدت عيناها الواسعتان غارقتين في رعب حقيقي وكأنها كشفت سراً لم تكن تنوي الإفصاح عنه بهذه السرعة. رفعت يديها المرتجفتين محاولة تهدئة كيرا، وهمست بصوت خافت يشبه حفيف الورق:

— لا تصرخي... أرجوكِ، فالجدران هنا لها آذان حقاً! لا أعرف وجه الشخص بالكامل، فالظلام كان حالكاً دائماً في زاوية المقهى الخلفية، لكنني كنت أرى ظله بوضوح، وكنت أسمع صوت خطواته المميزة وهي تقترب من درج الطابق العلوي... الطابق المغلق الذي لا يصعد إليه سوى من يملك المفتاح الحقيقي للبناية!

ضيقت كيرا عينيها، وحللت كل كلمة بحذر شديد، ثم قالت بصوت صارم:

— مفتاح الطابق العلوي؟ هيرمان يؤكد أن لا أحد يصعد إلى هناك، ولوكاس يقول إن الطابق مهجور منذ

سنين، وكلاوس وهانز يتجنبان سيرته تماماً... كيف تتقاطع شهاداتكم جميعاً عند نفس المكان المظلم؟

ابتسمت غريتا بمرارة، وبدت على شفتيها أمارات اليأس وهي تهز رأسها ببطء:

— لأننا جميعاً مرتبطون بذات الشبكة يا كيرا! لا أحد هنا بريء تماماً، ولا أحد هنا مجرم بالكامل. كل واحد منا يحمل جزءاً من اللغز، وكلنا كنا نراقب كاتيا خوفاً على مصالحنا... هي لم تُقتل لأنها كانت شابة مسكينة، بل لأنها اقتربت جداً من الباب الذي يربط أسرارنا جميعاً!

أخذت كيرا نفساً عميقاً، وشعرت أن حلقة الدائرة قد أغلقت محكمة حولها؛ فغريتا، التي جاءت متخفية تحت غطاء النصح والإرشاد، اعترفت بأن الجميع مراقبون، وأن الطابق العلوي المهجور هو مركز العاصفة.

قبل أن تتمكن كيرا من طرح سؤالها التالي، سمعت صوت حركة خفيفة وراء باب الغرفة، تلتها خطوات مبتعدة في

الممر المظلم وكأن شخصاً كان يستمع إلى كل ما دار بينهما!

الفصل الرابع عشر .

ظلت خطوات الممر تتلاشى ببطء حتى اختفت تماماً في سكون البناية المطبق، لكن أسئلة كيرا كانت تشتعل في رأسها كالجمر المشتعل. التفتت بسرعة نحو غريتا التي كانت تفرك يديها بتوتر وتلتقط أنفاسها بصعوبة، لتواجهها مباشرة وبنبرة قاطعة:

— انتظرِي هنا! لستِ مجرد جارة جديدة تبحث عن الأمان، كلامكِ كله مليء بالتناقضات والثغرات التي لا يمكن لفتاة هادئة حديثة العهد بالحي أن تعرفها.

رفعت غريتا رأسها بعينين مرعبتين ومحملتين بالدموع، وبدت على وشك الانهيار. تقدمت منها كيرا خطوة أخرى وصطكت أسنانها بالأسئلة التي تزن على صدرها:

— أجيبيني بوضوح ودون لف أو دوران؛ كيف عرفتِ أصلاً بأمر مقهى الأوركيد وكاتيا ولوكاس وأنتِ تدعين أنكِ جديّة في الطابق السفلي منذ أيام معدودة فقط؟ والأدهى من ذلك، كيف عرفتِ أن

هيرمان ولوكاس على صلة بالطابق العلوي المغجور رغم أن الجميع هنا ينكرون معرفتهم به تماماً؟!

تراجعت غريتا إلى الوراء حتى اصطدمت بمسند الباب، ثم أطلقت ضحكة قصيرة ومريرة تشبه البكاء، وقالت بصوت منكسر ومبحوح:

— تظنين أنني جئت إلى هذا الحي صدفة يا كيرا؟ تماماً مثلك تماماً، تماماً مثل كاتيا قبلك!

عقدت كيرا حاجبيها بذهول:

— ماذا تقصدين؟!

أخذت غريتا نفساً عميقاً، وبدأت تفكك خيوط لغزها بصوت مرتجف يكشف جزءاً مظلماً من الحقيقة:

— أنا لست جارة عادية ولست هاربة بسيطة... اسمي الحقيقي ليس غريتا، بل كنت أعمل مساعدة لكاتيا نفسها في خفاء قبل أن تختفي بشهر كامل! أنا من دللتها على مقهى الأوركيد في البداية، وأنا من أخبرتها أن لوكاس هو من يدون تحركات الزبون لصالح الجهة التي

تسيطر على البناية، وأنا من راقبت هيرمان وهو ينقل الصناديق المشبوهة ليلاً إلى الطابق العلوي!

اتسعت عينا كيرا حتى كادت تخرج من مكانها من شدة الصدمة. كل هذا الوهم عن "البراءة والجيرة الطارئة" سقط في ثوانٍ معدودة؛ غريتا لم تكن سوى الشاهدة الخفية التي تعرف الحقيقة كاملة، والضلع المفقود في شبكة المتواطئن.

تابعت غريتا كلامها وهي تشد على معطفها بدموع حارقة:

— نعم، هيرمان ولوكاس يعرفان تماماً ما يوجد في الطابق العلوي، لأنهما ببساطة من كانا يحرسان مفتاحه لصالح شخص أعلى شأناً في المدينة. كاتيا لم تقتل لأنها سرقت مستندات، بل لأنها صعدت إلى ذلك الطابق في ليلة غيابهم واكتشفت ما لا يجب على بشري أن يراه! والآن... بعد أن جئتِ أنتِ إلى نفس الشقة، كررتِ نفس الخطأ، وتتبعكِ من كان يراقبنا خلف الباب قبل قليل!

لم تكن كيرا تملك متسعاً لاستيعاب هول المفاجأة.

الفصل الخامس عشر .

كانت أنفاس كيرا متسارعة، وصوت صرير باب الممر يتردد في رأسها، لكنها قررت ألا تستسلم للذعر الذي ألقته كلمات غريتا المفاجئة. لكي تكتشف الحقيقة الكاملة وراء تلك الشبكة المتواطئة، كان عليها أن تعود إلى الخيوط الأولى، وأن تلعب لعبتها الذكية عبر طرح أسئلة بريئة مصطنعة على الشخصين اللذين يعرفان خبايا البناية أكثر من غيرهما: كلاوس وهانز.

في صباح اليوم التالي، وتحت ضباب برلين الرمادي، صعدت كيرا بخطوات هادئة نحو الشقة رقم أربعة أ. رفعت يدها وطرقت الباب طقات خفيفة ومدروسة.

انفتح الباب ليظهر كلاوس بملامحه الغائرة وعينيه الزجاجيتين. لم يبد متفاجئاً بوجودها، بل تنفس ببطء ووسع الباب قليلاً. ابتسمت كيرا بابتسامة مصطنعة تعبيرًا عن التعب، وقالت بنبرة عفوية وخفيفة:

— صباح الخير يا سيد كلاوس... أزعجتك في هذا الوقت المبكر، لكنني حقاً لا أستطيع النوم. الشقة في الطابق الرابع ضيقة ومخيفة ببعض أصواتها، وكنت أفكر... هل تعرف إن كان هناك مكان خال للإيجار في الطابق العلوي؟ بدا لي واسعاً وبعيداً عن ضجيج الشارع، فربما يكون مناسباً لي أكثر.

تصلبت عضلات وجه كلاوس فجأة، وتلاشت تلك الابتسامة الباهتة من عينيه ليحل محلها بريق من التوتر الحقيقي. أخذ خطوة للوراء، وأمسك بإطار الباب بقوة وقال بصوت حاد ومحذر:

— الطابق العلوي؟! إياكِ ثم إياكِ أن تفكري حتى في صعود ذلك الدرج يا فتاة، ناهيكِ عن السكن فيه! ذلك المكان ليس للإيجار، ولا لأي شخص حي.

أظهرت كيرا فضولاً بريئاً مصطنعاً، ورفعت حاجبيها ببراءة:

— لماذا؟ هل هو مسكون بالقصص القديمة إلى هذا الحد؟

هز كلاوس رأسه ببطء، وابتلع ريقه بصعوبة بالغة قبل أن يهمس بصوت مرعب:

— ليس بالأشباح يا كيرا... بل بالبشر الذين لا يرحمون. هناك من دفع ثمناً باهظاً لمجرد أنه اقترب من بابه، تماماً كما حدث مع كاتيا حين سألت عنه مراراً قبل اختفائها. أغلقي على نفسكِ باب شقتكِ ولا تبحثي عن الموت بيديكِ!

أنهى كلامه وأغلق الباب بخشونة في وجهها، لتترك كلماته صدى مرعباً في ممر السلالم.

لم تتوقف كيرا عند هذا الحد؛ ففي المساء، توجهت خطواتها نحو دكان البقالة القديم لرائحة الشحم والتبغ. دخلت بهدوء، واقتربت من طاولة هانز الذي كان ينظف ساطوره كعادتها. وضعت علبة سجائر على الخشب، وقالت بنبرة تفيض بالبراءة والتذمر:

— مساء الخير يا سيد هانز... الشقة التي أعيش فيها مرهقة حقاً، كنت أتساءل إن كان بإمكاني الانتقال قريباً

إلى الطابق العلوي في هذه البناية. يبدو مساحته أكبر، فلماذا لا يستغله صاحب البناية في الإيجار؟

توقف هانز عن مسح الساطور تماماً، ورفع عينيه المظلمتين لتستقرا عليها بنظرة ثقيلة وباردة. انحنى للأمام، وضرب بيده الغليظة على الطاولة الخشبية وقال بصوت أجش وحازم:

— الطابق العلوي ليس للعيش يا فتاة... إنه الغرفة السوداء التي تُحفظ فيها صفقات هذا الحي! كل من سأل قبلك عن ذلك الطابق — ومِن بينهن تلك الروسية المتطفلة كاتيا — انتهى به الأمر إلى الاختفاء المفاجئ عندما أدرك أن أسرار المالك الحقيقي لا يمكن العبث بها. إن كنتِ تريدين البقاء على قيد الحياة هنا، فانسَ تماماً أن فوق رأسك سقفاً غير سقف شقتكِ!

خرجت كيرا من الدكان ودمائها تضج في عروقها؛ فكلاوس وهانز، رغم اختلاف زواياهما، اتفقا تماماً على تحذيرها من الطابق العلوي وربطا مصير كاتيا المشؤوم بذات المكان المحظور، مما أكد لها أن السر الأكبر والقاتل الحقيقي يختبئان خلف ذلك الباب المغلق في أعلى البناية.

الفصل السادس عشر .

أغلقت كيرا باب شقتها بإحكام، واستندت بظهرها إليه وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة. كلمات كلاوس التحذيرية ونبرة هانز المهددة كانت تتردد في رأسها بلا انقطاع، لكن ما أثار رعبها حقاً هو ذلك التقاطع العجيب في الأقوال: كل الشخصيات (كلاوس، هانز، لوكاس، وهيرمان) تتفق على نقطة مركزية واحدة؛ إن أفعال كاتيا التي أودت بها إلى الاختفاء الغامض كانت تدور حصرياً إما داخل هذه الشقة (رقم أربعة ب) أو في أروقة مقهى الأوركيد السفلي!

لم تعد القضية مجرد استماع لروايات الجيران، بل أصبحت هندسة معقدة لمسرح جريمة متكامل. الشقة التي تقطنها الآن والمقهى الذي تمضي فيه لياليها هما عيناهما اللتان ترقبان كل شيء، وهما الصندوقان اللذان يحتفظان ببقايا أسرار كاتيا.

قررت كيرا أن تكثف بحثها بدقة مجهرية حول هذين المكانين، وأن تضم إلى معادلة الشك شريكتها الجديدة "غريتا"، التي تبدو وكأنها تعرف أكثر بكثير مما أبدت.

بدأت رحلة التفتيش الدقيق من جديد داخل شقتها؛ رفعت زوايا السجاد البالي، وتفحصت أنابيب المطبخ القديمة، حتى عثرت خلف خزانة الحائط المتهالكة على شق صغير في الجدار الإسمنتي، وضعت فيه أصابعها لتسحب قصاصة ورق ثقيلة ومطوية بعناية. فتحتها لتجد خريطة صغيرة مرسومة بخط يد كاتيا، تحدد فيها نقاط التفتيش وأماكن المراقبة السرية التي يغطيها لوكاس وهيرمان في المقهى!

أدركت كيرا أن كاتيا لم تكن تائهة، بل كانت تخطط لكشف شبكة كاملة متواطئة بين جدران البناية ومقهى الأوركيد.

وضعت الخريطة في جيب معطفها، وأخذت نفساً عميقاً لتضبط ملامح وجهها. كان لزاماً عليها أن تخطو خطوتها الأكثر خطورة؛ التوجه مباشرة إلى مقهى الأوركيد في ساعة متأخرة، ليس كعاملة بسيطة أو زبونة هاربة من البرد، بل كمحققة خفية تبحث عن الدليل القاطع الذي سيسقط آخر أقنعة المتواطئين.

الفصل السابع عشر .

كان منتصف الليل قد حل بظلاله الثقيلة على برلين، والضباب الخارجي يلتف حول واجهات الزجاج ليلغي أي أثر للحياة في الخارج. دفعت كيرا باب مقهى الأوركيد برفق، ودخلت بخطوات بطيئة وحذرة، محتفظة بالخريطة السرية التي وجدتها مطوية بإحكام داخل جيب معطفها الداخلي.

كان المكان شبه خالٍ من الزبائن؛ الأضواء الحمراء الباهتة تلقي بظلال طويلة وطاردة على الطاولات الخشبية، ورائحة التبغ المذيب تملأ الهواء. خلف المنضدة، كان لوكاس يقف بملامحه الهادئة وابتسامته المسالمة المعتادة، يمسح كأساً زجاجياً ببطء مفرط، بينما كان هيرمان يجلس في زاويته المظلمة المعتمة يدخن سيجاره بصمت تام، مراقباً كل هفوة بدقة لا تكطئ.

لم تكن كيرا تنوي كشف أوراقها أبداً؛ فهي لم تذهب لتواجههم أو لتسأل عن الشاي، بل كانت تتبع بعينين حذرتين

التفاصيل المرسومة على خريطة كاتيا التي دلتها على وجود ممر خدمي قديم يقع خلف مخزن المقهى السفلي، مكان لا يقصده عادة سوى العاملين.

بينما كان لوكاس منشغلاً بإعداد طلبية لأحد الزبائن العابرين في الزاوية الأخرى، انسلت كيرا بخفة تامة نحو الممر الخلفي الضيق الموصل إلى غرف التخزين والخدمات المنسية، مبتعدة عن أعين هيرمان ولوكاس.

كان الممر مظلماً تماماً، وتفوح منه رائحة الرطوبة وأتربة السنين. وبينما كانت تسير بخطوات مترددة تكاد لا تو سمع، توقفت فجأة إثر صدور صوت همس خافت ومتقطع ينبعث من خلف غرفة الصيانة الصغيرة التي كانت أبوابها مغلقة بإحكام.

اقتربت كيرا بحذر شديد، وألصقت أذنها بالباب الخشبي القديم، لتميز صوت رجل يتحدث عبر الهاتف بنبرة خفيضة وموتورة:

— اسمعني جيداً... أنا أؤكد لك أنني لم أره منذ تلك الليلة اللعينة التي التقينا فيها في ذلك البار المشبوه في

الحي الخلفي... نعم، البار القديم حيث التقينا بتلك الفتاة الروسية للمرة الأخيرة قبل أن تختفي تماماً. العقد لم يعد آمناً، وعلينا أن نتخلص من بقية الأوراق قبل أن تجد هذه الفتاة الجديدة ما تبحث عنه تماماً كما فعلت سابقتها... احذر، فالجدران هنا لم تعد تستر أحداً!

شعرت كيرا بأنفاسها تتجمد في صدرها، ودمائها تتدفق بقوة في أذنيها حتى كادت تنسى كيف تتنفس.

صوت المتحدث لم يكن للوكاس، ولا لهيرمان، ولا لكلاوس أو هانز؛ كان صوتاً جديداً غريباً تماماً، لم تسمعه من قبل في هذه البناية. والأدهى من ذلك، أنه كشف عن مكان جديد لم يأتِ على ذكره أحد من الجيران من قبل: **البار القديم في الحي الخلفي**، وهو المكان الفعلي الذي شهد اللقاء الأخير لكاتيا ليلة اختفائها!

تراجعت كيرا بخطوات خفيفة ومرتعشة، عابرة الممر المعتم في اتجاه صالة المقهى قبل أن يلاحظ أحد غيابها، مستعيدة هدوءها الخارجي بينما كان عقلها يغلي؛ لقد سقط قناع جديد، وظهر شريك آخر في الخفاء، وبات عليها الآن

أن تتحرك بحذر نحو ذلك البار الغامض في الحي الخلفي لتكتشف وجه الشخص الذي كان يتحدث في الهاتف.

الفصل الثامن عشر .

كان المطر الخفيف يبلل أسفلت برلين المعتم عندما انسلّت كيرا من الباب الخلفي لمقهى الأوركيد، عاقدة العزم على ألا تدع ذلك الصوت الغامض يفلت من بين يديها. التزمت المسافة، متبعة خطوات الرجل الطويل الذي كان يرتدي معطفاً داكناً يغطي ملامحه، ويمشي بخطوات سريعة وثابتة عبر الأزقة الضيقة والمنعزلة، بعيداً عن صخب الشوارع الرئيسية.

بعد مسيرة استمرت نحو عشرين دقيقة، توقف الرجل أمام واجهة مهترئة لبار قديم، تكسو لافتته طبقة سميكة من الصدأ، ويكتب عليها بخط باهت «المرساة المكسورة». دفع الباب الخشبي ودخل، لتبعث من الداخل رائحة الكحول الرخيص والتبغ القديم مع أصوات موسيقية خافتة وباهتة.

انتظرت كيرا لثوانٍ قبل أن تدفع الباب بدورها وتدخل بحذر. كان المكان شبه فارغ؛ طاولات خشبية متآكلة، وإضاءة صفراء شاحبة تعكس جدراناً ملطخة بالبقع. كان الرجل المجهول يجلس في أقصى الزاوية المظلمة، يخلع

قبعته ويطلب كأساً من المشروب القوي من النادل العجوز الذي كان يمسح الطاولة بكسل.

أخذت كيرا عمقاً لأنفاسها، ورسمت على وجهها ملامح الإنهاك والخوف الشديد، ثم مشت بخطوات بطيئة ومتثاقلة حتى اقتربت من طاولته. وقفت بقربه، وسمحت لدموعها الحقيقية ـــ التي استزادتها من وطأة الخوف والقهر طوال الأيام الماضية ـــ أن تنساب على وجنتيها ببطء وانهيار تام.

رفعت يديها المرتجفتين لتمسح دموعها، وقالت بصوت منكسر ومبحوح يكاد يختفي:

ـــ أرجوك... أعلم أنني غريبة وأزعجك، لكنني لم أعد أتحمل... هل لي بدقيقة واحدة فقط من وقتك؟

رفع الرجل رأسه ببطء، وظهرت أمامه ملامح حادة وقاسية؛ عينان غائرتان، وندبة خفيفة تمتد على طول فكه الأيمن. نظر إليها بنبرة حادة وريبة واضحة، وقال بصوت خشن:

ـــ من أنتِ وماذا تريدين مني؟ أنا لست في مزاج للحديث، اذهبي من هنا.

لم ترتجع كيرا، بل زادت من نحيبها وبكائها المرير، وألصقت ظهرها بالجدار القريب لتبدو وكأنها فتاة ضعيفة تقطعت به السبل تماماً، وقالت بصوت متهدج يتقطع بالشهقات:

ـــ أنا... أنا أبحث عن أختي الكبرى... لقد جاءت إلى هذه المدينة قبل شهور عديدة من أجل أن تبحث عن قوت يومها وعمل شريف تعيلنا به... اسمها الحقيقي... اسمها كاتيا!

تصلبت ملامح الرجل تماماً في تلك اللحظة. توقفت يده التي كانت تمسك بكأس المشروب، واتسعت عيناه قليلاً قبل أن يضيقهما بريبة شديدة، محاولاً استيعاب ما سمع للتو.

ـــ كاتيا؟! قلتِ... أختكِ الصغرى؟!

انهارت كيرا أكثر في البكاء، وغطت وجهها بكفيها وهي تردد بصوت خافت ومرتجف:

— نعم... كاتيا. انقطعت أخبارها عنا تماماً منذ فترة طويلة، وقيل لي إنها كانت تسكن في نفس الحي الذي أسكنه الآن، وإن آخر شخص رآها وتحدث معها قبل اختفائها كان أنت... أرجوك، قل لي إنها على قيد الحياة، قل لي أين هي، لقد أوشكت على الجنون من كثرة البحث والتهديدات التي أتلقاها كل يوم!

نظر إليها مطولاً، متمعناً في تفاصيل وجهها ودموعها التي بدت صادقة ومؤثرة للغاية. شيئاً فشيئاً، تراجعت تلك القسوة والحدة من عينيه، وتحولت ملامحه إلى مزيج ثقيل من الحزن والأسى المكبوت. تنهد بعمق، وأشار بيده الخشنة نحو المقعد المقابل له على الطاولة، وقال بنبرة منخفضة ومبحوحة خلت تماماً من التهديد:

— اجلسي... يا فتاة. الجلوس هنا أفضل من البكاء وقوفاً.

جلست كيرا بحذر، ومسحت دموعها بطرف معطفها، بينما أخذ الرجل رشفة بطيئة من كأسه، وأشعل سيجارة جديدة بيدي مرتجفتين قليلاً. بدأ يحدثها بنبرة مختلفة كلياً عن كل

ما سمعته من كلاوس، أو هانز، أو لوكاس، أو هيرمان؛ نبرة حملت حماية ودفئاً غريباً لم تكن تتوقعه أبداً:

— لم تكن كاتيا تلك المخادعة ولا اللصة التي يصفها بها أولئك الحقراء في البناية... لقد كانت أطهر بكثير من هذا المستنقع. أنا أعرفها حقاً، وعملت معها لفترة قصيرة هنا. كانت تحاول جمع المال ليس لنفسها، بل لتؤمن حياة كريمة لعائلتها البعيدة... هيرمان ولوكاس وكلاوس، كلهم كاذبون؛ هم من حاولوا استغلال براءتها وطيبتها للقيام بأعمال قذرة لصالح الشبكة التي تدير هذا الحي من خلف الستر. وعندما رفضت الاستمرار وصعدت إلى الطابق العلوي لتكشف أسرارهم الكبرى، تآمروا عليها وأخفوها عن العالم... وأنا... أنا الشخص الوحيد الذي حاول حمايتها حتى آخر لحظة، ولهذا السبب يبحثون عني الآن تماماً كما بحثوا عنها!

شعرت كيرا ببرودة تسري في أطرافها؛ لقد استمعت للتو إلى الرواية الحقيقية والمختلفة كلياً، رواية تبرئ كاتيا تماماً وتكشف الوجه الحقيقي للشبكة المتواطئة، وتضعها وجهاً

لوجه أمام حليف جديد وغير متوقع وسط هذا الظلام الدامس.

الفصل التاسع عشر .

كانت أنفاس كيرا متسارعة، والضوء الأصفر الشاحب للبار المهجور ينعكس على وجهها الباهت بينما كانت تستوعب كل كلمة يلفظها الرجل ذو الندبة. جلس الرجل لبرهة ينفث دخان سيجارته ببطء شديد، وكأن الأيام الثقيلة التي أثقلت كاهله لشهور طويلة تبحث أخيرًا عن منفذ لتخرج إلى النور.

مد يده الخشنة إلى جيب معطفه الداخلي، وأخرج مظروفًا جلديًا باليًا ومغبرًا، ووضعه على الطاولة الخشبية المتهالكة بينهما، ثم دفع به نحوها برفق وقال بنبرة مليئة بالأسى:

— إذا كنتِ حقًا تريدين معرفة الحقيقة وتبرئة اسم أختكِ المسكينة، فافتحي هذا المظروف. هذا ما جمعته كاتيا قبل أن يبتلعها الظلام... هذه هي الملفات الحقيقية لكل واحد من أولئك الوحوش الذين

يعيشون في البناية وفي المقهى، وهم يرتدون أقنعة البراءة والجيرة الطيبة.

فتحت كيرا المظروف بيدي مرتجفتين، وأخرجت منه أوراقًا مدونة بخط يد كاتيا المنمق والدقيق، إلى جانب صور ومستندات رسمية مسروقة. بدأت تقرأ بتمعن، بينما كان الرجل يفكك لها خيوط الشبكة بكل دقة:

— لنبدأ بذلك العجوز الخرف في الظاهر، **كلاوس**، الذي يمثل دور الجار الفضولي والمسالم. الحقيقة؟ كلاوس ليس سوى حارس قديم لشبكة تبييض الأموال في الحي. كاتيا اكتشفت أنه كان يحفر في جدار شقتها ليس لأنه مهووس، بل لأنه كان يخفي خلف العوازل الإسمنتية حقائب صغيرة تحتوي على أموال مهربة تخص صفقات مشبوهة، وكان يبتز المالك الأصلي للبناية بناءً عليها. وحين واجهته كاتيا بالدليل، هددها بالقتل إن لم تصمت.

أخذت كيرا نفساً عميقاً لتستوعب صدمة كلاوس، فأشار الرجل إلى الورقة التي تليها وتابع بصوت خشن:

— أما **هانز**، البقال العجوز الذي يتحدث عن الشرف والأخلاق، فهو الترس الذي يدير السوق السوداء لتوزيع السلع المسروقة في المنطقة. كاتيا وجدت في دفتر حساباته القديم أسماء ضباط ومسؤولين يغضون الطرف عن تجارته مقابل رشاوى ضخمة. هانز لم يكن يخيفها بالساطور فقط، بل كان يخشى أن تفضح صفقاته التي ستكلفه سنوات طويلة في السجن.

امتلأت عينا كيرا بالدموع وهي ترى كيف كانت أختها تحارب وحوشًا بمفردها، ثم انتقلت عيناها إلى اسم **لوكاس**، ليقاطعها الرجل بابتسامة مريرة:

— **لوكاس**، ذلك النادل البشوش ذو الابتسامة الساحرة. هل تظنين أنه يقدم الشاي بدافع الشفقة؟ أبدًا! لوكاس هو "العين الثالثة" للشبكة؛ كان يسجل

مواعيد دخول وخروج كل شخص يشتبه في ولائه، ويرسل تقارير مفصلة عبر رسائل مشفرة إلى الإدارة العليا في الطابق العلوي. كاتيا كشفت أنه هو من دس لها المخدر الخفيف في الشاي ليلة محاولتها الهروب، لكي يبدو الأمر وكأنها تعاني من نوبات هذيان.

توقفت أنفاس كيرا تماماً عندما وصلت إلى الاسم الأخير: **هيرمان**.

— و**هيرمان**... صاحب مقهى الأوركيد، هو الرأس المدبر الأكبر هنا. الطابق العلوي المغجور ليس مجرد غرفة مهملة، بل هو مقر العمليات السري الذي تُدار منه كل عمليات الابتزاز والتهريب في المنطقة. كاتيا صعدت إلى هناك في ليلة غيابهم، ووجفت عقود الملكية المزورة والأسماء الحقيقية للمتورطين الكبار، ووثقت كل شيء هنا في هذه الأوراق.

رفعت كيرا رأسها، ودموعها تنحدر بغزارة على وجنتيها، لكن نظراتها تحولت من الخوف إلى شعلة قوية من الغضب والإصرار. سألت بصوت ثابت ومبحوح:

— فهمت كل شيء... لكن من هو المتسبب الفعلي في اختفائها؟ من الذي فعل بها ذلك السوء ليلة اختفائها؟

تنهد الرجل بعمق، وأطرق بزاويته نحو الأرض، ثم قال بنبرة حزينة:

— لم يكن شخصًا واحدًا يا كيرا؛ لقد كان قرارًا جماعيًا اتخذوه في تلك الليلة اللعينة في الطابق العلوي. حين اكتشفوا أنها تملك هذا المظروف كاملاً، وتستعد للتوجه به إلى السلطات، تآمروا عليها. لوكاس استدرجها، وهانز وفر مكان الاختفاء المؤقت، وكلاوس وهيرمان هما من نفذا أمر تغييبها للأبد لضمان عدم خروج السر إلى

العلن. أنا الوحيد الذي اعترض وحاول تهريبها، لكنهم طردوني وهددوني بالقتل إن نطقت بحرف واحد، فبقيت أراقب من بعيد وأحمي هذا الدليل بانتظار اليوم الذي تظهر فيه من يكمل طريقها.

التزمت كيرا الصمت لثوانٍ معدودة، وشعرت أن قلبها بات يحمل ثقل الحقيقة كاملاً. أغلقت المظروف الجلدي بإحكام، ووضعته في عمق معطفها، ثم وقفت بكل ثبات ومدت يدها نحو الرجل وقالت بنبرة حازمة لا تقبل التراجع:

— شكراً لك لأنك حفظت أمانتها. الآن... انتهت لعبة الظلال والأكاذيب. سأجمع كل هذه الأدلة، المظروف، الخريطة، وكل ما وثقته، ولن أكتفي بمواجهتهم هنا... سأتوجه بها مباشرة إلى شرطة برلين، وليدفع كل واحد منهم ثمن ما اقترفه بحق كاتيا!.

الفصل العشرون .

تحت أضواء مركز شرطة برلين البيضاء والباردة، كانت كيرا تقف بشموخ وثبات، ويديها تشدان بقوة على المظروف الجلدي الثقيل الذي سلمته للمحقق المسؤول. بدا وكأن كابوس الأيام الماضية قد شارف على النهاية، فقد قدمت الأدلة الدامغة، والخريطة السرية، وملفات الإدانة التي تثبت تورط كل من كلاوس، هانز، لوكاس، وهيرمان في شبكة الابتزاز والتواطؤ المقيتة.

لم تستقر سوى ساعات قليلة حتى تحركت قوات الشرطة الألمانية بسرعة حاسمة؛ حيث اقتحمت البناية ومقهى الأوركيد، وأُلقي القبض على المتورطين الأربعة تباعاً وهم في حالة ذهول وتخبط، لتغلق دائرة الأكاذيب والتهديدات التي طالما أرهقت الحي.

لكن ما إن هدأت عاصفة الاعتقالات، وُدعيَت كيرا إلى مكتب التحقيق الجنائي لسماع التقرير النهائي، وهناك تلقت الصدمة التي هزت كيانها وحطمت كل تضحياتها وساعات الترقب الطويلة في تفاصيل الظلام.

وضع المحقق أمخبرها ملفاً رسمياً، وقال بنبرة عملية وجافة:

— الآنسة كيرا، لقد حققنا نجاحاً كبيراً في تفكيك هذه الشبكة الإجرامية واعتقالهم جميعاً بتهم الابتزاز، وتبييض الأموال، وتكوين عصابة إجرامية... لكن المفاجأة الصادمة التي أظهرها تقرير الطب الشرعي المتقدم هي أن أياً من هؤلاء الأربعة لم يكن القاتل الفعلي لكاتيا!

فجرت الكلمات رأس كيرا، وارتجفت شفتاها بصدمة عارمة:

— ماذا؟! كيف تقول هذا؟! لقد اعترفوا بتواطئهم، وهم من تسببوا في اختفائها!

أومأ المحقق برأسه بأسى، وفتح الملف ليعرض عليها الصور والتقارير الطبية الدقيقة:

— نعم، لقد تآمروا عليها وشاركوا في التخلص من أوراقها وملاحقتها، لكن تقارير التشخيص الجنائي قطعت الشك باليقين: كاتيا لم تختفِ حياً، بل قُتلت بوحشية، وشُرّحت جثتها بدقة جنائية مرعبة قبل شهور طويلة من قدومكِ إلى هذه الشقة! والأكثر رعباً... أن عينات الدماء التي وجِدت على آثار جريمتها تطابقت تماماً وبشكل كلي مع فصيلة دمكِ أنتِ وحدكِ!

تجمّد الدم في عروق كيرا، وسقطت الأوراق من يدها على الطاولة. دمها هي؟! كيف يكون دمها هو نفس الدم الموجود على جريمة قتل كاتيا التي حدثت قبل مجيئها إلى برلين؟!

تابع المحقق بصوت صارم وبارد:

— بناءً على هذه المعطيات الجينية المتطابقة، لم يعد بإمكاننا التعامل مع القضية كاختفاء عابر، بل كجريمة قتل أسرية مدبرة. لقد أصدرنا للتو مذكرة دولية عاجلة نطالب فيها شرطة موسكو بالقبض الفوري على أفراد عائلة كيرا واستجوابهم للوصول إلى الجاني الحقيقي.

جلست كيرا تحاول التقاط أنفاسها وسط ضباب كثيف من الذهول والانهيار؛ لقد طاردت طوال الأيام الماضية وهماً جماعياً في بناية مظلمة، لتكتشف أن الحقيقة أبشع بكثير، وأن القاتل الحقيقي لم يكن غريباً عنها قط... بل شخص يشاركها نفس الدم والعائلة!

الفصل الأخير .

مرّ أسبوع كامل من التحقيقات المكثفة والمضنية التي قادتها شرطة برلين بالتعاون المشترك مع السلطات الأمنية في موسكو. كانت الأيام تمضي على كيرا كدهور من القلق والخوف الطاحن، وهي تنتظر خلف جدران غرفتها الباردة أي خبر يفكك لغز تطابق الدماء والسر المرعب الذي يربط جريمة كاتيا بعائلتها.

وفي يوم بارد كئيب، جاء الاتصال الحاسم من المحقق الرئيسي ليطلب حضورها العاجل إلى مركز الشرطة.

جلست كيرا على المقعد المعدني المقابل للمكتب، وبدت ملامح وجهها شاحبة ومنهكة من جراء السهر والتفكير المستمر. فتح المحقق الملف الرسمي، ونظر إليها بنبرة غلبت عليها مسحة من الأسى الثقيل قبل أن يلفظ الكلمات التي هدمت ما تبقى من بنيان صبرها:

ـــ الآنسة كيرا... انتهت التحقيقات الدولية مع أفراد عائلة كاتيا في موسكو، وتوصل المحققون هناك إلى الحقيقة الكاملة والصادمة. لقد اعترف والدكِ بكل شيء بعد مواجهته بالأدلة وتقارير الحمض النووي المتطابقة.

اتسعت عينا كيرا بذهول قاتل، وخرج صوتها مرتجفاً ومبحوحاً:

ـــ والدي؟! هل تقصد أن... أن أبي هو من فعلها؟!

أومأ المحقق برأسه ببطء، وبدأ يسرد تفاصيل الاعتراف المرعبة بصوت هادئ:

ـــ نعم، والدكِ هو القاتل الحقيقي. لقد سافر سراً إلى برلين قبل أشهر بعد أن وصلته شائعات وأقاويل مشوهة ـــ مصدرها بعض المغتربين ـــ تفيد بأن كاتيا تعمل في أروقة مقهى مشبوه وتمارس أعمالاً غير أخلاقية وغير قانونية من أجل المال. بالنسبة له، ولعادات قريتكم الصارمة والمتزمتة،

كان ذلك "عاراً" يلطخ شرف العائلة ويستوجب التطهير بالدم.

توقف المحقق لبرهة، بينما كانت الدموع تنحدر بغزارة على وجنتي كيرا وهي تكاد تفقد القدرة على التنفس، ليتابع بتفاصيل أكثر قسوة:

— في تلك الليلة المظلمة، ترصد لها والدكِ في زاوية القبو، وواجهها بغضب أعمى. وحين دافعت عن نفسها وأصرت على استكمال طريقها، لم يكن القتل كافياً في عقليته المتخلفة؛ بل أقدم على تشريح جسدها وتشويهه بالكامل، محاولاً محو هويتها ومعتقدًا أنه يمحو بذلك "العار" المزعوم عن العائلة، تاركاً تلك الآثار والدماء التي تطابقت مع جيناتكِ لأنكِ من نفس دمه ونسله!

انهارت كيرا تماماً، وسقطت دموعها كحمم من النار على يديها المرتجفتين. كل ما سعت إليه، وكل الشكوك التي وجهتها نحو كلاوس، وهانز، ولوكاس، وهيرمان،

وحتى غريتا والظلال الأخرى، تبخرت فجأة لتصطدم بحقيقة أبشع وأكثر دموية: القاتل لم يكن غريباً يتصيد في الظلام، بل كان هو الأب الذي تربت في كنفه، وتحت ذريعة "الشرف والتقاليد البالية"، ذبح ابنة عمها وصديقتها وشرد روحها إلى الأبد.

لم تحتمل كيرا هول الصدمة؛ فقد تحطمت كل تضحياتها وساعات بحثها على صخرة الخيانة الأسرية العميقة. تسللت إليها موجة جارفة من الحزن العميق، والهزيمة النفسية الساحقة، والسقوط المظلم في وحل الاكتئاب الحاد الذي جردها من كل رغبة في الحياة أو الكلام.

وبعد أيام من انهيارها التام وعجزها عن الاستجابة لأي محيط خارجي، اتخذ الأطباء والجهات المختصة القرار الحتمي بنقلها إلى المصحة النفسية، لتخضع لبرنامج علاجي مكثف ومضخات نفسية لعلها تعيد شيئاً من التوازن لروح مزقتها أسوأ كوابيس البشر.

النـهاية .